



خطبة صلاة الجمعة 2025/7/4 للشيخ الطيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

## (تحرير الأنفس)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبي اجتبا، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أما بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيائي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّاهَا (٢) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾ [الشمس: 1-10].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: 18].

أخرج الإمام مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا تُسْتَجَابُ».

عنوان خطبة اليوم: تحرير الأنفس

في مطلع الأسبوع المنصرم أتهيأ سلسلة من الدروس في واحد من مساجد الشام عنوانها (تحرير الأنفس) قلتُ في مقدمتها للإخوة الحاضرين: تحرير الأرض من الظلم أمرٌ مهمٌ وخيرٌ كبيرٌ ونعمةٌ عظيمةٌ، ولكن تحرير الأنفس من موبقاتها وتخليصها من مساوئها أمرٌ أهمٌ وخيرٌ أكبر، ونعمةٌ بها نحفظ النعمة الأولى.

ومن فائتته معركة التحرير فلا تفتته معركة البناء والتعمير، وإنما يبدأ البناء من النفس بتحريرها من آثامها وتجميلها بفضائلها، بتخليتها من المساوئ وتخليتها بالمحاسن.

إذ كيف يعطي الآخرين مَنْ تكبّلت نفسه بالشح والبخل، وكيف يعين الآخرين من تلطخت نفسه بالأثرة، وكيف يؤلّف بين الجماعة مَنْ كانت نفسه موسومةً بالكِبْر والعُجْب، وكيف يسعى لخدمة مَنْ حوله مَنْ كانت نفسه كسولة اتكالية، وكيف يلتزم النظامَ من كانت نفسه غارقة في الفوضى!

فالبناء يبدأ من تحرير النفس من موبقاتها وتجميلها بكمالاتها.

وقد سمعتم في مطلع الخطبة فاتحة سورة الشمس يقسم الله تعالى فيها أحدَ عشرَ قسماً أنه سيفلح من زكّى نفسه من الموبقات، وحرّرها من الناقصات، وجملها بالكمالات، وشغلها بالصالحات، وسيخيب من تركها مع شهواتها وأهوائها، ودسّها في معاصيها وموبقاتها.

تكلّمنا في سلسلة (تحرير الأنفس) عن تحرير الأنفس من الكسل والأثرة والفوضى والحقد واللامبالاة واليأس والكبر والعُجْب والغفلة والظلم وسوء الظن، وعن تحرير الأنفس من الافتراء والبهتان والشح والبخل والإسراف والتبذير، وعن تحرير الأنفس من الرضوخ للعادة، ومقدمة وخاتمة.

وكنا في كل مفردة نتكلم عن معنى تلك المفردة التي ينبغي على المرء أن يحرر نفسه منها، وعن ضررها وخطورها، وعن طريقة تحرير النفس منها.

فتكلّمنا مثلاً عن معنى الكسل وعن ضرره وخطره وعن طريقة تحرير النفس منه، وهكذا في سائر المفردات.

وكان الجامعُ في كل ما تريد تحريرَ نفسك منه من النقائص مجاهدةَ النفس ومخالفتها.

فالنفس كالطفل إن تمهله شبَّ على حُبِّ الرِّضَاع وإن تطفمه ينطم

فاصرف هواها وحاذر أن تولّيه إنَّ الهوى ما تولى يُصمِّم أو يصم

ومن هنا أردت أن أحدثكم عن مجاهدة النفس، ففي مجاهدتها الخيرُ الكبير، وفي مجاراتها في شهواتها الضرُّ الكبير.

**أيها الإخوة:**

في أكثرَ من أربعين موضعاً يتحدث القرآن الكريم عن الجهاد في سبيل الله وعن المجاهدين، وفي مئات الأحاديث الشريفة تتحدث السنة المطهرة عن الموضوع ذاته.

ومواضع القرآن والسنة تتحدث عن أربعة أنواع من الجهاد؛ فجهاد النفس أولها، وجهاد الشيطان ثانيها، وجهاد الكفار ثالثها، وجهاد المنافقين رابعها.

وجهاد النفس والشيطان هما الأصل لجهاد الكفار والمنافقين، قال تعالى في خاتمة سورة العنكبوت: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]، قال المفسرون: (هذه الآية نزلت قبل فرض القتال فيكون معناها: والذين جاهدوا أنفسهم في طاعتنا لنهدينهم سُبُل ثوابنا).

أخرج الإمام أحمد وغيره عن فضالة بن عبيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله**».

وجهاد النفس أربع مراتب:

أولها: أن تجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح ولا سعادة في معاشك ومعادك إلا به، ومتى فاتك علمه شقيت في الدارين.

قال أبو يزيد البسطامي: (عَمِلت في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدت شيئاً أشدَّ عليّ من العلم ومتابعته).

وذنوبُ العباد كلها مرجعها إلى أمرين؛ جهلٍ وظلم، وإنما يُدفع الجهلُ بالعلم، ويُدفع الظلمُ بمجاهدة النفس والذكر.

فكم رأينا من يطلق زوجته طَلقة بائنة ثم يراجعها من دون عقد جديد جاهلاً بالحكم الشرعي فيقع وتقع فيما حرّم الله، وكان يقيه معصية الله طلبه للعلم الشرعي بحضور مجلس علمٍ أو سؤال عالمٍ، ولكن نفسه تمنعه الحضور وتوهمه كثرة المشاغل.

وكم سمعنا عَمَّن يُقرض قريبه قرضاً على أن يرده مع زيادة يرضاها جاهلاً بالحكم الشرعي فيقعان فيما حرم الله من الربا، وكان يقيهما معصية الله طلبهما الحكم الشرعي، باللاحق بمجلس علمٍ أو سؤال عالمٍ، ولكن النفس تمنعهما اللحاق وتمنيهما بالأمان.

وكم بلغنا عَمَّن يصاحب فتاة يريد لها زوجةً في المستقبل لكنه يغدو معها ويروح، يتمازحان ويتصاحكان، ويتخاصمان ويتصالحان، ويقعان فيما نُهت الشريعة عنه، وكان يعصمه ويعصمها مخالفةً الشريعة معرفةً بالحكم الشرعي في هذه الصحبة وما ينتج عنها، لو أنّ كلاً منهما لزم مجلس علم شرعي أو سأل الثقات من أهل العلم والتقى، ولكن النفس الأمارة بالسوء منعتهم السؤال أو الحضور تُعللها بضيق الوقت وتغريهما بالهوى.

لما سأل سيدنا موسى عليه السلام الخضر أن يتبعه على أن يُعلّمه قال: **(هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا)** أجابه الخضر عليه السلام بقوله: **(إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)** في دلالة واضحة أن العلم محتاج إلى الصبر، والصبر محتاج إلى مجاهدة النفس.

فأول مراتب مجاهدة النفس أن تجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق.

المرتبة الثانية: أن تجاهدها على العمل بالعلم، وإلا فمجرد العلم بلا عمل لا ينفع.

ألف الحافظ العَلَمُ الخطيب البغدادي كتاباً نفيساً عَنَوَنَهُ "اقتضاء العلم العمل"، مما قال فيه: (العلم شجرة والعمل ثمرة، وليس يُعدُّ عالماً من لم يكن بعلمه عاملاً، والعلم يراد للعمل كما العمل يراد للنجاة، وقيل: العلم والد والعمل مولود، فلا تأنس بالعلم ما كنت مقصِّراً في العمل ولكن اجمع بينهما، وإن قلّ نصيبك منهما).

فعلمك بضرر الأثرة ونفع الإيثار لا ينفع إن لم تجاهد نفسك على تقديم مصلحة الجماعة على مصلحتك الفردية، وعلمك بضرر الكسل ونفع العمل لا ينفع إن لم تحمل نفسك على العمل الصالح حملاً، وعلمك بضرر الفوضى ونفع النظام لا يجدي إن لم تحمل نفسك على لزوم النظام والتمسك به... وهكذا سائر ما تعلم مرهون نفعه بالعمل، وإلا كان حُجَّةً عليك لا لك.

فأول مراتب مجاهدة النفس أن تجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق، والمرتبة الثانية: أن تجاهدها على العمل بالعلم.

المرتبة الثالثة: أن تجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كنت من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبيّنات.

وقد جاء في الحديث النبوي الشريف الكثير الكثير من تعليم الجاهل وتذكير الغافل وإجابة السائل.

قال رسول الله ﷺ: **«بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»** [البخاري]

قال رسول الله ﷺ: **«ارْجِعُوا إِلَىٰ أَهْلِكُمْ فَعَلِّمُوهُمْ»** [البخاري]

قال رسول الله ﷺ: **«عَلِّمُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»** [أحمد]

ولعلّ نفسك تمنعك من التبليغ والتعليم بحجة الانشغال حيناً وبالتخويف حيناً آخر، وبقولها: (إنك لا تعلم) حيناً ثالثاً، وبقولها: (إنك لا تصلح) حيناً رابعاً، فجاهدها واحملها على تعليم الخلق وتبليغ الحق ولو كرهت.

فأول مراتب مجاهدة النفس أن تجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق، والثانية: أن تجاهدها على العمل بالعلم، والثالثة: أن تجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه.

والمرتبة الرابعة: أن تجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق، وتحمل ذلك كله لله.

ولك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، واذكر أنهم آذوه وأغزوه وهددوه وحاصروه وقاطعوه وهجروه، وأرجفوا واستهزؤوا به، وقاتلوه ليترك الدعوة إلى الله ودلالة الخلق على الحق وهو ﷺ صابر صامد محتسب مقبل غير مدبر.

فجاهد نفسك الضعيفة كما جاهد ﷺ نفسه الشريفة لتحذو حذوه، وتسلك دربه، وتستن بسنته، وترقى بمتابعته ﷺ.

### أيها الإخوة:

إذا استكمل العبد هذه المراتب الأربعة من مجاهدة نفسه في العلم والعمل والتعليم والصبر عليها صار من الرّبّانيين، فمن علم وعمل وعلم وصبر فذاك يُدعى عظيماً في ملكوت السماوات.

### أيها الإخوة:

قرّروا أن تجاهدوا أنفسكم لتحزّروها من موبقاتها وتحمّلوها بكمالها، فترجحوا وتربحوا، ولا تتركوها مهملة تمضي بكم إلى ما تريد فتوردكم ما لا تريدون.

واعلموا أنه ليس أنفع للمرء من تزكيتة نفسه، فجِدّوا واجتهدوا، فقد أفلح من زكّاهها وقد خاب من دسّاهها.

والحمد لله رب العالمين